

**بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة
في حديثه عن الخصوصيات
الزوجية والممارسات الجنسية**

الدكتور/ رشيد منصور الصباحي

أستاذ التفسير (المساعد)

كلية الآداب - جامعة اب

قسم الدراسات الإسلامية وعلوم القرآن



(AUST)

بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة في حديثه عن الخصوصيات الزوجية والممارسات الجنسية

أولاً : ملخص البحث :

دار البحث حول بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة في حديثه عن الخصوصيات الزوجية ، والممارسات الجنسية ، حيث تبين من خلال جميع آيات الموضوع ودراساتها ، أن للقرآن الكريم منهجاً خاصاً ، وأدباً رفيعاً عالياً في تناوله القضايا التي تتعلق بخصوصيات الزوجين من نكاح ونحوه ، والمسائل المتعلقة بالممارسات الجنسية المحرمة ، له طريقة مميزة في عرض ذلك والحديث عنه تتميز عن كل كلام البشر ، وتعتبر الطريقة الأرقى والأسمى والأكثر تعظفاً في انتقاء الألفاظ، وصياغة الآيات وتحديد السياق ، تحقيقاً لقوله سبحانه : ﴿لَا يُجِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾^(١) حيث أكد البحث خلو القرآن الكريم – وخاصة آيات الموضوع – من كل لفظ قبيح تمجده الأسماع ، وتنفر منه الفطر السليمة ، وتأباه معاني القيم والحياء والعفة .

بل أثبت البحث استفاضة كلام الله الحكيم بكل ألفاظ الطهر والنقاء والسمو ، وهو يتحدث عن أخص خصوصيات الزوجين من جماع وملاعنة ، وغيرها ، ويتحدث عن فاحشة الزنى وفاحشة عمل قوم لوط، والحوادث الجنسية المتعلقة بقصة يوسف عليه السلام ، وكذا اتهام مريم وعائشة عليهما السلام بما لا يليق بهما .

ثانياً : مشكلة البحث (أهميته) وأسباب اختياره : -

تتضح أهمية البحث من خلال حاجة المجتمع المؤمن بالقرآن ، المهتدي به ، إلى معرفة منهج القرآن ووحى الرحمن في التعبير عن القضايا التي تمس العورات الجنسية ، وتعلق بالغرائز والشهوات ، ليلتمس كل متأدب بالقرآن ما أمكن من آدابه الرفيعة وقيمه العالية ، وأسلوبه الطاهر العفيف في تناوله لمسائل

(١) النساء آية (١٤٨).

الجنس وخصوصيات الزوجين ، التي لا يطلع عليها إلا خالقهما ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ ﴾^(٢) وقال : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَمِّينَ ﴾^(٣) .

أما أسباب اختيار البحث فمن أهمها :

(١) غياب كثير من آداب المعاشرة الجنسية بين الزوجين في كثير من الديار والأسر .

(٢) فساد عدد من القنوات الفضائية وبرامجها ووسائل الإعلام والقائمين عليها بكشف العورات التي أمر الله بسترها ، وتعليل ذلك باسم الفن والمتعة والسياحة والجمال .

(٣) فشو الألفاظ القبيحة ، والمناظر الفاضحة ، في كثير من الأماكن والمؤسسات في العالم الإسلامي ، وانتشار بداءة القول ، واستمرار فحش اللسان حتى صار المنكر معروفاً .

ولهذا جاء هذا البحث لمعالجة هذه القضايا

ثالثاً : أهداف البحث :

(١) كشف ما في القرآن من أدب رفيع ، وتعبير بليغ ، وأسلوب عال في تناوله القضايا المستورة التي يتناسب معها التلميح دون التصريح ، والإشارة دون تفصيل العبارة ويظهر جمالها في إجمالها ، وإبداعها في طيها واختصارها وكنائتها .

(٢) تأكيد تميز كلام الله عن كلام البشر في القضايا الجنسية ، والخصوصيات الزوجية ، في غرفة النوم ، بل على فراش الزوجين وما يدور بينهما ، دون أن يثير حديث القرآن عن ذلك شيئاً من الغرائز الجنسية عند قارئه أو سامعه .

(١) الإسراء : ٩ .

(٢) البقرة : ١ .

٣) حمل الزوجين المسلمين والمجتمع المسلم بشكل عام على التأدب بآداب القرآن قولاً وفعلاً، بالتعفف في الكلمات الجنسية، والتستر في الممارسات الزوجية، والاهتداء بهدي القرآن.

رابعاً : منهج البحث : استخدام الباحث منهجاً علمياً في الموضوع كمايلي : -

- منهج الاستقراء والحصر لما أمكن من آيات الموضوع .
- منهج التصنيف للآيات حسب خطة البحث .
- منهج الدراسة التفسيرية لآيات البحث .
- منهج الاستنباط لما في آيات الموضوع من ذوق رفيع وأدب عالي في اختيار ألفاظها وصياغة عباراتها .

خامساً : خطة البحث اشتملت خطة بحث بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة في حديثه عن الخصوصيات الزوجية والممارسات الجنسية على الباحث والمطالب التالية :

❖ المبحث الأول : تعريفات ومصطلحات :

المطلب الأول : المقصود ببلاغة القرآن .

المطلب الثاني : المقصود بآداب القرآن الرفيعة .

المطلب الثالث : المقصود بالخصوصيات الزوجية .

المطلب الرابع : المقصود بالممارسات الجنسية .

❖ المبحث الثاني : بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة في حديثه عن الخصوصيات الزوجية

المطلب الأول : بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في حديثه عن الجماع وما يتعلق به.

أولاً : استخدام الكناية والتعريض بدلاً عن التصريح المباشر.

ثانياً : استخدام العبارات المبهمة المضممة .

ثالثاً : استخدام أسلوب الاستعارة والتشبيه .

رابعاً : التنوع في الألفاظ والسياقات .

المطلب الثاني : بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في حديثه عن الطلاق بين الزوجين
والملاعنة بينهما :

أولاً : أدب القرآن في حديثه عن الطلاق بين الزوجين .

ثانياً : أدب القرآن في حديثه عن الملاعنة بين الزوجين .

◆ المبحث الثالث : بلاغة القرآن وأدبه الرفيعة في حديثه عن الممارسات الجنسية
المحرمة

المطلب الأول : بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في حديثه عن التحرش الجنسي
بيوسف عليه السلام

أولاً : انتقاء الألفاظ الدالة على إرادة الفاحشة والعزم عليها دون التصريح بها

ثانياً : وصف المشاهد المحرمة عن الإعداد للفاحشة والمطالبة بها دون ذكرها

ثالثاً : تبين مدى الثورة الجنسية منتهاها دون التلطف بفحش القول

رابعاً : التعبير عن الفاحشة بوصفها الدال على قبحها وفداحتها

خامساً : الاعتماد على حذف ألفاظ الفحش والتفحش بعد ذكر ما يشير إليها

المطلب الثاني : بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في حديثه عن الاتهامات الجنسية
الباطلة

أولاً : بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في صياغته لقصة مريم وولادتها بعيسى
عليهما السلام

ثانياً : بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في ذكر حادثه الافك وتبرئة عائشة عليها
السلام

المطلب الثالث : بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في حديثه عن ممارسة الفواحش

أولاً : أدب القرآن الرفيع في حديثه عن فاحشة الزنا .

ثانياً : أدب القرآن الرفيع في حديثه عن فاحشة اللواط .

تمهيد :

جعل الله كلامه - القرآن الكريم - معجزة للخلق أجمعين إلى قيام الساعة لما فيه من فصاحة وبلاغة ، شهد لها المؤمنون والمشركون وعجزوا عن مجاراتها ، وتوالت الدراسات القرآنية لكتاب الله ، لكشف ما فيه من أحكام وإعجاز وهدي وبيانات للناس ، بل لتأكيد ما فيه من إحكام وإتقان وإبداع وبيان .

وإذا كان السابقون والمعاصرون الذين أفنوا أعمارهم في دراسة القرآن العظيم قد كشفوا كثيراً من وجوه إعجازات القرآن البيانية والغيبية والتاريخية والتشريعية وغيرها ، فإن لكتاب الله سمةً خاصةً في التعبير القرآني عن القضايا التي يتناولها ، لا يتذوقها إلا من استغرق في نصوصه وآياته ، بكل مشاعره وأحاسيسه ، بقلبه وعقله ، متدبراً ما فيه من آيات بالغات بليغات ، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ﴾^(٤) .

ولهذا فلا عجب أن يصف الوليد بن المغيرة كتاب الله بعد أن فكر وقدر ، قائلاً: ((والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ..))^(٥) .

وهذه الحلاوة يتذوقها كل من عاش مع القرآن في القرآن كله ، ومن ذلك حديث القرآن عن أخص خصوصيات العلاقة الزوجية والممارسات الجنسية ، حيث عرض كلام الله لذلك وتناوله بطريقة عالية رفيعة عفيفة راقية ، تبليغ المقصود وتبليغ الأفهام، وتحكم الأحكام ، دون أن تثير الغرائز الجنسية ، ودون أن تهبط بآيات الله عن مستواها الرفيع بطريقة تمجها الأسماع ، أو تنضر منها الفطر السليمة ، والقلوب الصافية ، وهذا ما نشرحه بالتفصيل في هذا البحث .

(٤) العنكبوت : ٤٣ .

(٥) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/٢٠٠ باب جماع أبواب المبعث عن عكرمة رضي الله عنه ، انظر دلائل النبوة للبيهقي ، تحقيق د/ عبدالمعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م ، بيروت - لبنان .

المبحث الأول : تعريفات ومصطلحات :**المطلب الأول : المقصود ببلاغة القرآن**

المقصود بالبلاغة لغة واصطلاحاً : -

البلاغة لغة من البلاغ ، وهو الوصول إلى المراد ، والبلاغ ما يتوصل به إلى الشيء وينتهي إليه ، والبلاغة الفصاحة ، وفلان بليغ أي حسن الكلام ، وفصيحه ، يبلغ بعبارة لسانه كأنه ما في قلبه^(٦) .

أما البلاغة اصطلاحاً فتعني : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، أي الأمر الداعي إلى التكلم^(٧) ، وهي التعبير عن المعنى الصحيح لما طابقه من اللفظ الرائق من غير مزيد على المقصد ، ولا انتقاص عنه في البيان^(٨) .

أما القرآن فهو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، المكتوب في المصاحف ، المنقول إلينا بالتواتر ، بلا شبهة^(٩) ، المبدوء بالفاتحة ، المختوم بالناس .

وبناءً على ما سبق فالمقصود ببلاغة القرآن : فصاحته وحسن تعبيره عن الشيء الذي يتناوله .

المطلب الثاني : المقصود بأدب القرآن الرفيعة

أولاً : المقصود بالأدب لغة واصطلاحاً :

الأدب لغة جمع أدب ، والأدب هو حُسن التناول للشيء ، وأصل الأدب الدعاء ، ومنه يقال للوليمة مأدبة بالفتح والضم لأن الناس يدعون إليها ، ... ويقال للبعير إذا ذلل أديب ومؤدب^(١٠) .

(٦) لسان العرب لابن منظور ١/٤٨٦ للإمام محمد بن مكرم بن علي ، دار إحياء التراث العربي ، ط ٣ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م بيروت - لبنان .

(٧) التعريفات للجرجاني ص ٤٦ الشريف علي بن محمد ، دار الكتب العلمية ، ط ٣ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، بيروت - لبنان .

(٨) الكليات للكفوي ص ٢٣٦ ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، بيروت - لبنان .

(٩) التعريفات للجرجاني ص ١٧٤ .

(١٠) لسان العرب لابن منظور ١/٩٣ مادة ادب .

والأدب اصطلاحاً هو : علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً أو كتابه^(١١)، وله أصول .

أما المقصود بالرفيعة لغة فهي مأخوذة من الرفع وهو ضد الوضع ، ونقيض الخفض، وارتفع الشيء أي علا ، والرفعة نقيض الذلة ، والرفعة خلاف الضعة ، والرفيع الشريف ، والمرفوع المعظم^(١٢) .

وبناء على ما سبق فالمقصود بأدب القرآن الرفيعة أي علو عباراته وعظمتها معنى ومبنى في تناولها للشيء.

المطلب الثالث : المقصود بالخصوصيات الزوجية : -

خص لغة بمعنى أفرد ، وخصصه واختصه أفرده ، به دون غيره ، واختص بالأمر انفرد به^(١٣)، وخصوصيات جمع خصوصية ، التاء للمبالغة ، والياء للنسبة، أو مصدرية^(١٤) .

أما الزوجية لغة : مشتقة من زوج ، وهو خلاف الفرد ، والزوج الإثنان ، والزوج الفرد الذي له قرين ، ويطلق على الذكر والأنثى^(١٥) .

وبناءً على ما سبق فالمقصود بالخصوصيات الزوجية أي ما انفرد به الزوجان الذكر والأنثى دون غيرهما من نكاح ونحوه .

المطلب الرابع : المقصود بالممارسات الجنسية :

الممارسة لغة من مرَّسَ ، والمرَّس السير الدائم ، وله معاني أخرى ، والمرس والمراس الممارسة وشدة العلاج^(١٦) .

واصطلاحاً : المداومة وكثرة الانشغال بالشيء^(١٧) .

(١١) الكلبيات للكفوي ص ٦٨ .

(١٢) لسان العرب لابن منظور ٢٦٨/٥ مادة رفع .

(١٣) لسان العرب لابن منظور ١٠٩/٤ .

(١٤) الكلبيات للكفوي ص ٤٢٣ .

(١٥) لسان العرب لابن منظور ١٠٧/٦ .

(١٦) لسان العرب لابن منظور ٧٧/١٣ .

(١٧) الكلبيات للكفوي ص ٨٧٤ .

أما الجنسية لغة فهي مؤنث الجنس ، ومشتقه منه ، والجنس هو الضرب من كل شيء ، وهو أعم من النوع ، ويجمع على أجناس وجنوس ، وهو لفظ يدل على الكثرة تضمناً^(١٨) ... والجنس الخشن أي الرجال ، والجنس الناعم أو اللطيف أي النساء^(١٩) ، والجنسية لها معان أخرى^(٢٠) .

أما الجنسية اصطلاحاً فتعني المتعلقة بجنس الذكور و جنس الإناث بشكل عام ، أو التي تعني الاتصال الشهواني بين الذكر والأنثى^(٢١) ، أو بين المثليين ذكر مع ذكر ، وأنثى مع أنثى .

والأفلام الجنسية أي التي تغرق في عرض المشاهد الجنسية والعورات التي تفرق الذكر عن الأنثى^(٢٢) .

وبناءً على ما سبق فيمكن تعريف الممارسات الجنسية بأنها :

الاتصالات الجنسية المتكررة سواء بين الذكور والإناث ، أو بين الذكور مع بعضهم البعض ، أو بين الإناث مع بعضهم البعض .

إذا يمكن تعريف عنوان البحث :

(بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة في حديثه عن الخصوصيات الزوجية والممارسات الجنسية).

بأن المقصود به هو :

بلوغ القرآن مراده ومنتهاه في حديثه عن نكاح الزوجين ، والاتصالات الجنسية بين غيرهما ، بأفصح العبارات وأعلاها وأجملها مبنى ومعنى ، وبأشرف التعبيرات وأحسنها ، دون خلل في الكلام بزيادة أو نقصان ، ودون خدش للحياء أو إسفاف في التعبير .

(١٨) الكليات للكفوي ص ٣٣٩ ، لسان العرب ٢/٣١٣ .

(١٩) معجم اللغة العربية عالم المعرفة ٣/٤٢١ ، تأليف أديب اللجمي وآخرون ، مطبعة المحيط ، ط ١ ، ١٩٩٥ م ، بيروت - لبنان .

(٢٠) انظر : الكافي معجم عربي حديث ص ٣٤٣ ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ط ١ ، ١٩٩٢ م ، بيروت - لبنان .

(٢١) معجم اللغة العربية لأديب اللجمي ٣/٤٢١ .

(٢٢) انظر معجم اللغة العربية لأديب اللجمي ٣/٤٢١ .

وهذا ما نشرحه بالتفصيل في المباحث التالية :

المبحث الثاني : بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة في حديثه عن الخصوصيات الزوجية :

لم تكن الخصوصيات الزوجية بين الزوجين بمنأى عن بلاغة القرآن وفصاحته وعلو عباراته وروعته - كما هو منهج القرآن في كل آياته - والمتأمل لآيات القرآن المتعلقة بذلك يجد منهجاً خاصاً اتخذته القرآن الكريم في التعبير عن الخصوصيات الزوجية ، والتوجيه ، والوعظ ، والتنبيه ، والتحذير ، والأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، والندب ، والحث على فعل شيء معين ، والدفع إليه والمنع منه ، وكل ما يتعلق بخصوصيات الزوجين المستورة عن أعين الناس ، وكما أن الله تعالى قد أمر بستر العورات ، وحجب كل الممارسات المتعلقة بها بين الزوجين وهو السستير سبحانه ، فإنه قد اتخذ نفس النهج في التعبير عن ذلك ، فأخفى وحجب وستر ووارى وجمل كل العبارات التي تشرح العمليات أو الممارسات الخاصة بين الزوجين ، إمعاناً في الستر ، وتادباً في العرض ، وتفناً في البيان .

وحتى يتضح هذا الأمر رأى الباحث تقسم هذا المبحث إلى المطلبين التاليين :

المطلب الأول : بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة في حديثه عن الجماع وما يتعلق به :

تعددت آيات القرآن التي تناولت الممارسة الجنسية بين الزوجين ، وتنوعت ألفاظها واختلفت سياقاتها بحسب موضوعاتها ومقاصدها ، وكلها حافظت على طابع القرآن وذوقياته الرفيعة في الحديث عن ذلك ، ولم تصرح آياته بلفظ الجماع مطلقاً في جميع المواضع والمواضيع التي تحدثت عن ذلك ، إنما استخدمت عدة ألفاظ بعدة صيغ وأساليب كما يلي :

أولاً : استخدام الكناية والتعريض بدلاً عن التصريح المباشر

ويتضح هذا في عدة آيات ، كما في قوله تعالى : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شِسْمٌ وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ ... ﴾ (٢٣) قال ابن جرير رحمه الله ((يعني تعالى ذكره بذلك : نساؤكم مزدرع أولادكم ، فأتوا مزدرعكم كيف شئتم ، وأين شئتم ، وإنما عني بالحرث المزدرع ، والحرث هو الزرع ، ولكنهن لما كن من أسباب الحرث جعلن حرثاً ، إذ كان مفهوماً معنى الكلام ... ثم قال في تفسير بقية الآية ... والإتيان في هذا الموضع كناية عن اسم الجماع)^(٢٤) وقال ابن عاشور رحمه الله : هذا من "الكنايات اللطيفة والتعريفات المستحسنة ، وهذه أشباهها في كلام الله آداب حسنة ، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ، ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم...^(٢٥).

إن المتأمل في الآيات السابقة تتضح له بلاغة التعبير القرآن في حديثه عن الممارسات الجنسية بين الزوج وزوجته من خلال استخدامه لفظ (فأتوا) بدلاً من التصريح بالجماع وما في معناه ، ومن خلال مجيئه بلفظ الحرث الذي يدل دلالة -قاطعة على أن المقصود بذلك هو إباحة إتيان المرأة في قبلها - وليس في دبرها كما وهم بعض الجاهلين ، فإن انتقاء اللفظ القرآني مقصود لذاته ليدل على ما وضع لأجله.

ثانياً : استخدام العبارات المهمة المفهومة :

من الآيات التي تحدثت عن الجماع ومتعلقاته ، وأدت المقصود بإفهام قارئها وسماعها ، مما جاء في قوله تعالى :

(٢٣) البقرة : ٢٢٣ .

(٢٤) جامع البيان في تأويل القرآن ، ٣٩٨/٤ ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ، بيروت - لبنان .

(٢٥) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور ٢٦٦/١ ، محمد الطاهر بن محمد (ت ١٣٩٣هـ) ، مؤسسة التاريخ العربي ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ، بيروت - لبنان .

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيِّمِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لَبَاسُكُمْ وَأَنْتُمْ لَبَاسُ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ... ﴾ (٢٦).

قال الشنقيطي رحمه الله : " والأظهر في معنى الرفث في الآية أنه شامل لأمريين : أحدهما : مباشرة النساء بالجماع ومقدماته ؛ والثاني : الكلام بذلك" (٢٧) وقال المراعي : "وقد علمنا الله النزاهة في التعبير عن هذا الأمر حين الحاجة إلى الكلام فيه بعبارات مبهمة كقوله : لامستم النساء ، أفضى بعضكم إلى بعض ، دخلتم بهن ، فلما تعشاها حملت .." (٢٨) وقال سيد قطب رحمه الله بعد أن شرح معنى الرفث بنحو ما قلنا : "ولكن القرآن لا يمر على هذا المعنى دون لمسة حانية رفاقة ، تمنح العلاقة الزوجية شفافية ورفقاً ونداوة ، وتناهي بها عن غلظ المعنى الحيواني وعرامته ، وتوقظ معنى الستر في تسيير هذه العلاقة" (٢٩) .

ثالثاً : استخدام أسلوب الاستعارة والتشبيه :

يظهر هذا الأسلوب في كثير من الآيات ، كما في بقية الآية السابقة في قوله تعالى : ﴿ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (٣٠) قال صاحب روائع البيان بعد ذكره عدة لطائف في تفسير الآية : (اللطيفة التاسعة : عبر المولى عزوجل عن المباشرة الجنسية التي تكون بين الزوجين بتعبير سام لطيف ، لتعليمنا الأدب في الأمور التي تتعلق بالنساء ﴿ هُنَّ لَبَاسُكُمْ وَأَنْتُمْ لَبَاسُ لَهُنَّ ﴾ فالتعبير هنا على طريقة الاستعارة ، والمراد اشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام) (٣١) .

(٢٦) البقرة : ١٨٧ .

(٢٧) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٣/٥ ، لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (١٣٩٣هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، بيروت - لبنان .

(٢٨) تفسير المراعي ، الشيخ أحمد مصطفى المراعي ، ٧٨/٢ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط (بدون) د.ت - مصر .

(٢٩) في ظلال القرآن ١٧٤/١ ، سيد قطب إبراهيم ، دار الشروق ، ط (بدون) ، د.ت - القاهرة .

(٣٠) البقرة : ١٨٧ .

(٣١) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ٨٤/١ ، محمد بن علي الصابوني .

وقال الشيخ عطية محمد سالم : وانظر قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ وكيف غطى وأخفى في هذا الأسلوب ما يستحي منه ، وأبرزه بلباسه في التشبيه بما يتقى به ، ومدى مطابقتها معنى اللباس بحاجة كل من الزوجين (لآخر ..) (٣٢) .

رابعاً : التنوع في الألفاظ والسياقات :

أعتمد عليه القرآن في التعبير عن عملية الممارسات الجنسية بين الزوجين وما يستحي من ذكره ما جاء في آيات كثيرة مبثوثة في كتاب الله حيث يشير القرآن إشارات متعددة متنوعة إلى الممارسة الجنسية بين الزوجين بألفاظ يلها الحياء والستر والتعفف. وسياق يتجلى فيه البعد عن كل كلمة بذينة فاحشة، أو فضة غليظة ، أو نابية ممجوحة ، وبأسلوب بليغ لا يثير الشهوات ، ولا يحرك مكامن الغرائز الجنسية ، ولا يخرج القارئ والسماع عن الأدب والحياء ، أو يخرجه عند قراءة تلك العبارات وسماعها وبما لا يחדش عفة كل عفيف وعفيفة ، وبطريقة تحفظ اللسان من قبيح العبارات ، وسيئ الكلمات ، ونكارة الألفاظ ، وفحش القول ويتضح هذا في الآيات التالية:

- في قوله تعالى : ﴿ فَأَعْزَلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ (٣٣)

- وقوله : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ ﴾ (٣٤) .

- وقوله جل شأنه في سياق حديثه عن تجويزه مجيء الرجل زوجته ليالي

الصيام : ﴿ وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ ﴾ (٣٥) .

(٣٢) تنمة أضواء البيان ٩٣/١ ، عطية محمد سالم .

(٣٣) البقرة: ٢٢٢ .

(٣٤) البقرة: ٢٢٢ .

(٣٥) البقرة: ١٨٧ .

- وقوله جل في علاه : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٣٦) .

- وقوله عز من قائل : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَآنَا وَإِنَّمَا مِيبِنَا ، وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (٣٧) .

- وقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٣٨) .

- وغيرها من الآيات ، ونختتم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ . . . وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا . ﴾ (٣٩)

نلاحظ في كل الآيات السابقة أن الله تعالى الستير يعبر عن خصوصيات العلاقة الزوجية من نكاح وما يتعلق به ، بأسلوب خاص مقصود متميز في اختيار ألفاظه ، وصياغة عباراته وتحديد سياقاته ، بتنويع الكلمات تجديداً لذهن القارئ والسامع ، وإظهاراً لبلاغة القرآن وفصاحته ، وجرياً بألفاظه وعباراته على

(٣٦) الأعراف ١٨٩ .

(٣٧) النساء: ٢٠- ٢١ .

(٣٨) النساء: ٢٣ .

(٣٩) النساء: ٤٣.. ونحوها في المائدة : ٦ .

الذوقيات الرفيعة الراقية والأدب الجم العظيم ، كما هي كل آيات القرآن الكريم .

إن كل الآيات السابقة تتحدث عن الممارسة الجنسية بين الزوج وزوجته ، لكنها لم تصرح بالجماع ولا في لفظ واحد ، الذي هو مقصد ومقصود النكاح بين الزوجين ، بل تارة تعبر عن النهي عن نكاح الحائض بلفظ ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ ولفظ ﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ وتارة تشير الآيات إلى لفظ الجماع بالمباشرة أو الغشي أو الإفضاء أو الملامسة ، أو الدخول ، ونحوها من الألفاظ ، وكلها ألفاظ في غاية التلميح والتأدب والسمو ، وفي سياقات وعبارات تهدي للتي هي أقوم ، وتهذب سلوك الأمم ، وتضع قواعد وأسس راسخة لأساليب الخطاب الجنسي الراقى . دون تصريح بألفاظ الجماع أو كشف وتعريية لمواضع العورة .

المطلب الثاني : بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في حديثه عن الطلاق بين الزوجين والملاعنة بينهما : -

لا يزال القرآن الكريم - كما هو منهجه - يحتفظ بطابعه الخاص الرفيع وذوقياته العالية في حديثه عن خصوصيات الزوجين ، سواء في حال الاتفاق - كما سبق ذكره - أو في حال الافتراق كما نبينه هنا ، والفرق بين الزوجين قد يكون بطلاق ، أو بتفريق وغيره كما في الملاعنة بينهما ، ونبدأ بشرح الحالة الأولى :

أولاً : أدب القرآن في حديثه عن الطلاق بين الزوجين : -

تعددت آيات الطلاق في القرآن الكريم ، وبعضها تناولت أو أشارت إلى ما كان بينهما من المعاشرة الجنسية الخاصة ، ولكن بأدب جم ، ويتضح هذا من قوله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرُبُوهُنَّ فَرِيضَةً وَمَعُوْهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَاعَاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ، وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ

فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْتُمْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ .

عبر المولى عزوجل في هاتين الآيتين عن مباشرة الرجل زوجته أو عدم مباشرته لها بلفظ ﴿ تَسْوَهُنَّ ﴾ وهذا اللفظ كما هو معلوم ومحسوس أنه لفظ لطيف خفيف سهل رقيق حتى في مخارجه ومعناه ودقة حروفه ودلالته ، ولم يصرح القرآن بألفاظ الجماع ، قال القاسمي : (وإنما كنى تعالى بقوله : ﴿ تَسْوَهُنَّ ﴾ عن المجامعة ، تأديباً للعباد في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به)^(٤٠) .

ثانياً : أدب القرآن في حديثه عن الملاعنة بين الزوجين :

إن كلام الله تعالى البالغ غايته في الرفعة وعلو الشأن في التعبير السامي يستمر في ذلك حتى في أشد حالات النزاع بين الزوجين ، وذلك كما هو عند التلاعن بينهما ، ويتضح هذا من قوله تعالى في آيات الملاعنة : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ ﴾^(٤٢) ذكر ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ما نصه : (هو الرجل يرمي امرأته بالزنا)^(٤٣) أو يرميها باللواط^(٤٤) .

(٤٠) البقرة ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٤١) محاسن التأويل ٢٨٠/٣ محمد جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) ، وقف على طبعه محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الفكر ، ط٢ ، ١٣٩٨ - ١٩٧٨م ، بيروت - لبنان .

(٤٢) النور٦ - ٧ .

(٤٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨ / ٢٥٣٣ الإمام الحافظ محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي ، تحقيق أسعد محمد الطيب ، المكتبة العصرية ، ط (بدون) ، دت ، صيدا - لبنان .

(٤٤) سلسلة التفسير ١٨ / ٣٣ أبو عبدالله مصطفى العدوي المصري .

وقال القرطبي : (عام في كل رمي ، سواء قال : زנית أو زانية أو رأيتها تزني أو هذا الولد ليس مني فإن الآية مشتملة عليه)^(٤٥) .

وهنا نلاحظ أن القرآن الكريم عبر عن اتهام الزوج لزوجته بفاحشة الزنا بلفظ (يرمون) .

ثم حذف اللفظ المقصود أو الفعل المذموم ، ويمكن تقديره هنا بـ(فاحشة الزنا) إننا نجد أن القرآن الكريم قد تحدث عن الفحش والفواحش بشكل عام - كما هو في آيات أخرى - فصرح بألفاظها الصريحة كالزنى ونحوه ، ولكنه لم يفعل هذا في مقام حديثه عن الزواج الذي أسس على التقوى من أول يوم ، وقام على الحق والخير ، والطهر والعفاف ، فإنه حتى وإن عبر عن اتهام الزوج لزوجته بفاحشة الزنى ، فلا يزال القرآن الكريم يحافظ على جو العفاف والتعفف ، فلا يصرح بالزنى ونحوه ، بل يكتفي بإطلاق كلمات تفهم إشاراتها ، وتقدر ببقية عباراتها المحذوفة قصداً ، وهذه لطيفة قرآنية تؤكد منهج القرآن في ستر كل قبيح والتعبير الأجل عن الفعل الأقيح ، والصياغة المحمودة للأفعال المذمومة .

إننا نلاحظ أن القرآن الذي ينكر فاحشة الزنى يتنكر لذكر هذا اللفظ في معرض حديثه عن الحياة الزوجية حتى وإن شابتها الشوائب واشتدت حالات النزاع فيها وبلغت منتهاها بالتلاعن بين الزوجين .

(٤٥) الدر المنثور في التفسير المأثور ١٢/١٨٥ ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق مركز هجر للبحوث ، دار هجر ، ط (بدون) ، ت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، مصر .

المبحث الثالث : بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة في حديثه عن الممارسات الجنسية المحرمة :

تحدث القرآن الكريم عن كثير من الممارسات الجنسية المحرمة ، تحدث عن التحرش الجنسي والاعتصاب ، والفتنة والإغراء والإغواء للوقوع في الفاحشة ، وتحدث عن البغاء والزنى الذي يعني إيلاج ذكر في فرج أنثى ، وتحدث عن اللواط (عمل قوم لوط) الذي يعني إيلاج ذكر في دبر ذكر مثله أو أنثى ، وتحدث عن الخليلات والصديقات والأخلاء والأصدقاء الذين يمارسون الفاحشة ، لكنه في حديثه عن هذا كله وأمثاله عندما ما يتحدث عن الممارسة الجنسية والأفعال المحرمة منها ، لم يأت بلفظ واحد يهبط بالقرآن عن مستواه الرفيع العالي - وإن كان قد ذكر مسمى الزنا ، بل تناولها جميعاً بطهارة في انتقاء الكلمات وصياغتها ، تجلت في ذلك كله بلاغة الكلمة في التعبير القرآني وأدبها بطريقة لا مثيل لها كما يتضح من المطالب التالية : -

المطلب الأول : بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة في حديثه عن التحرش الجنسي

بيوسف عليه السلام :

سجل القرآن الكريم حادثة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ، وسعيها جاهدة للإيقاع به في الفاحشة معها ، بعد أن فتنت به فتنة عظيمة ، وبذلت ما في وسعها لجره للافتتان بها ، وبدأت معه ما يسمى في عصرنا الحاضر بالتحرش الجنسي ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَمَا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ، وَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ ، وَأَسْبَقَنَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ

شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ، يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ، وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ، قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجُنَ وَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ ، قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤٦﴾ .

ففي هذا المقطع الطويل يبرز أدب القرآن الرفيع في حديثه عن مشاهد من الإغراءات الجنسية، والممارسات المغرية، والمثيرة للغرائز، ورغم قوة تلك المشاهد والحوادث أو الوقائع الجنسية، إلا أن كلماتها وعباراتها القرآنية، المعبرة عنها، بل وطريقة صياغتها، لا تحدث شيئاً من الإثارة الجنسية لدى قارئها أو سامعها مطلقاً، ولا يتبادر إلى الذهن أنها خرجت عن العفة والتعفف والطهر والنقاء .

فنحن نلاحظ أن الآيات السابقة تنوعت ألفاظها الدالة على النكاح والجماع أو المعاشرة الجنسية المحرمة والدعوة إليها، ولكنها لم تصرح بشيء من ذلك، بل جاءت ألفاظها تشير إشارة إلى هذا الفعل بشتى الطرق كما يلي: -

(٤٦) (يوسف: ٢٢- ٣٤) .

أولاً : انتقاء الألفاظ الدالة على إرادة الفاحشة والعزم عليها دون التصريح بها :

تحدث القرآن الكريم عن محاولة امرأة العزيز الإيقاع بيوسف عليه السلام في فاحشة الزنا معها ، لكنه لم يصرح بذلك مطلقاً بل استخدم عدة أساليب ، وانتقى عدة ألفاظ ، وصاغ عبارات عدة ، لشرح ذلك ، دون وصف الفعل صراحة ، ومن ذلك استخدامه بعض الألفاظ الدالة على إرادة الجماع والعزم عليه ، وهذا كما في قوله تعالى عن امرأة العزيز : ﴿ وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ . . . ﴾^(٤٧) ، أي (على نفسها وعلى يوسف في أمر الجماع) كما قال أهل التفسير^(٤٨) فنلاحظ هنا أن الآيات القرآنية لم تصرح بلفظ الزنا الذي أرادته المرأة من يوسف عليه السلام ، وسعت بكل جهدها لتحقيقه ، بل جاءت الآيات بلفظ المرادة ، وأصل المرادة الإرادة والطلب برفق ولين^(٤٩) ، وهذا اللفظ يوحي بالمخادعة والحرص والإلحاح كما قال المفسرون^(٥٠) ، وقد تكرر هذا اللفظ بعدة صيغ في القرآن في سورة يوسف ، وعدة اشتقاقات ، وكلها دالة على أن المقصود به هو إرادة الجماع والنيكاح لا سواه ، فتارة يسجل القرآن قول يوسف عليه السلام دفاعاً عن نفسه أمام عزيز مصر عندما افترت عليه امرأة العزيز إرادته السوء بها ، قائلاً : ﴿ هِيَ رَأَوْتَنِي عَنْ نَفْسِي ﴾^(٥١) وتارة يذكر القرآن مقالة النسوة في المدينة كما قال سبحانه على لسانهن ﴿ امْرَأَةٌ عَزِيْزٌ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾^(٥٢) ، وتارة يكرر القرآن مقالة امرأة العزيز مرة ثانية أمام النسوة قائلة :

(٤٧) يوسف : ٢٣ .

(٤٨) الدر المنثور للسيوطي ١٦٢٠/٩ .

(٤٩) يوسف : ٢٣ .

(٥٠) الدر المنثور للسيوطي ١٦٢٠/٩ .

(٥١) نفسه ونفس الصفحة .

(٥٢) انظر : تفسير القرآن الحكيم - تفسير المنار ١٢/٢٢٧ ، محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٢٤٥هـ) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

ط . (بدون) ، ت ١٩٩٠م ، القاهرة - مصر .

﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾^(٥٣) ففي كل هذه المواضع يستخدم القرآن لفظ المراودة بدلاً من التصريح بالزنا والنكاح أو الجماع ليبقى جو القرآن صافياً نقياً من كل الألفاظ التي تعكر صفاءه، وتتعارض مع كل أدب وحياء وعفة.

ثانياً: وصف المشاهد المعبرة عن الإعداد للفاحشة والمطالبة بها دون ذكرها:

بلغ القرآن الكريم مبلغاً عظيماً في التصوير للأحداث، والتعبير عن الأفعال، لدرجة أن القارئ لكلام الله يكاد يتخيل نفسه يشاهد الحدث، أو يعيش فيه، ويستشعره بكل جوارحه، وربما يثير فيه عواطفه وأحاسيسه وانفعالاته، وهذا كثير في آيات القرآن، ومن ذلك وصفه لسلوكيات امرأة العزيز وتصرفاتها لإرواء شهوتها، وإشباع نهمها وغريزتها الجنسية من يوسف عليه السلام، ولكن دون أن يهتك الأستار، أو يفضح الأسرار، ويصرح بالعبارات التي تخدش الحياء، وتكشف العورات، ويتضح هذا جلياً من تعبيره سبحانه عن الحالة النفسية، والتصرفات الفعلية التي سادت مشهد امرأة العزيز، وسعيها للوقوع في الفاحشة، وإيقاع يوسف عليه السلام بها، كما قال تعالى عنها ﴿... وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ...﴾^(٥٤). جاء في قراءة أخرى ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بكسر الهاء، وفي قراءة ثالثة ﴿هَيْتُ لَكَ﴾ بفتح الهاء وضم التاء، وفي قراءة رابعة ﴿هَيْتُ لَكَ﴾ بسكر الهاء وضم التاء مهموزاً وعلى كل القراءات^(٥٥) فإن المفهوم منها أنها هيأت نفسها له، ودعته إلى نكاحها^(٥٦)، بل وحشته على ذلك، والقرآن الكريم لم يصرح أبداً

(٥٣) يوسف : ٢٦ .

(٥٤) يوسف : ٢٣ .

(٥٥) انظر : النشر في القراءات العشر ٣٣١/٢ ، للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي ، الشهير بابن الجزري (٨٣٣هـ)، أشرف على تصحيحه على محمد الصباح ، دار الكتب العلمية ، ط (بدون) ، دت بيروت - لبنان .

(٥٦) انظر : معالم التنزيل ٤/٢٢٧ ، محيي السنة أبو محمد بن الحسين بن مسعود البغوي (٥١٠هـ) ، حققه وخرج أحاديثه محمد عبدالله النمر وآخرون ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط ٤ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ، البلد (بدون) .

بلفظ النكاح والجماع (الزنى) ، تحاشياً من استخدام ألفاظ وعبارات لا تناسب مقام السمو والطهر الذي انتهجه القرآن في مثل هذه الأحوال.

ثالثاً : تبين مدى بلوغ الثورة الجنسية منتهاها دون التلفظ بفحش القول : -

تمر بنا في سورة يوسف مواقف ومشاهد تبين مدى ما وصلت إليه امرأة العزيز من الشغف بيوسف عليه السلام ، وسعارها الجنسي المتقد ، وجنونها الشهواني الغريزي، ويعبر القرآن الكريم عن ذلك كله بأسلوب فريد رائع يؤدي المطلوب دون أن يحرك ساكناً في جسد قارئ هذه السورة أو سامعها ، نجد هذا بارزاً في قوله تعالى عن يوسف وامرأة العزيز في بيان مدى ما وصلت إليه الحالة الجنسية المستعرة ، ﴿ وَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٥٧) . اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً في المقصود بهم يوسف عليه السلام ، وتوضيح المعنى الراجح بشأنه ، وتبرئته مما افتراه عليه بعض أهل الكتاب ، وغلط فيه بعض أهل التفسير^(٥٨) ، والذي يعيننا هنا بيان التعبير القرآني عن قوة وشدة التوتر والاستعداد النفسي لامرأة العزيز ، بل وإقبالها الجسدي العارم على يوسف ، وجهادها الكبير وهي تراود فتاها عن نفسه، لتروي ظمأها منه ، وتقضي شهوتها ونهمها فيه ، حيث كشف القرآن عن بلوغ ثورتها الجنسية منتهاها ، بالمجيء بلفظ ﴿ هَمَّتْ بِهِ ﴾ دون التصريح بمقصود همها وتفاصيله ، أو التلفظ بفحش القول ، قال أهل التفسير في معنى ﴿ هَمَّتْ بِهِ ﴾ : (همت بيوسف حين استلقت على فراشها للجماع)^(٥٩) .

(٥٧) يوسف ٢٤.

(٥٨) انظر تفاصيل ذلك في : زاد المسير في عالم التفسير ٤١٥/٣ ، جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ)، و: مفاتيح الغيب ٩٢/١٨ ، للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي () ، دار الكتب العلمية ، ط (١) ، ت ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م ، بيروت - لبنان .

(٥٩) تفسير مقاتل بن سليمان ١٤٥/٢ ، أبو الحسن مقاتل بن سلمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي ، تحقيق أحمد فريد ، دار الكتب العلمية ، ط (١) ، ت ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م ، بيروت - لبنان .

ويتضح بلوغ همها الجنسي مبلغاً عظيماً من بقية الآيات ، قال تعالى :
﴿وَأَسْبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ . . . ﴾^(٦٠) .

ورغم هذا المشهد القوي بتفاصيله ودلالاته ، إلا أن القرآن الكريم قد أعرض عن ذكر ألفاظ الفحش والتفحش ، واكتفى بما دل عليه من لفظ الهم ، وهكذا هو كلام الله في تبينه كل المواقف الحرجة ، ووصفه لكل المشاهد الفاضحة ، بأسلوب هادئ رقيق رفيع ، ساتر .

رابعاً : التعبير عن الفاحشة بوصفها الدال على قبحها وفداحتها :

من المسلم به أن القرآن الكريم يأتي بألفاظه بطريقة هادفة مقصودة تؤدي أكثر من معنى في وقت واحد ، ويأبلغ وأقوى العبارات والصيغات ، وهذا ما نجده بوضوح في تعبيره عن الفاحشة (الزنا) في سورة يوسف بلفظ وأسلوب يحقق النفور منها ، ويبين قبحها وكبير إثمها ، حيث قال سبحانه عن يوسف عليه السلام مبيناً فضل الله عليه ، ﴿ . . . كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٦١) ، ذكر ابن القيم أن مقصود السوء العشق ، ومعنى الفحشاء الزنا^(٦٢) ، وقال الشنقيطي: (السوء مقدمات الفاحشة كالقبلة ، والفحشاء الزنا)^(٦٣) ، وأياً كان معنى السوء ، فإن المفسرين قد اتفقوا أن معنى الفحشاء في هذه الآية الزنا ، وهذا اللفظ قد أعرض القرآن الكريم عن ذكره هنا ، بل وعن ذكر ألفاظ العشق والقبلة ونحوها ، وإنما جاءنا بلفظ (السوء والفحشاء) للإشارة إلى معانيها المستقبح ذكرها في كلام الله وكتابه ، والفحشاء هو ما

(٦٠) يوسف ٢٥ .

(٦١) يوسف ٢٤ .

(٦٢) التفسير القيم لابن القيم ٧٠/٢ ، جمع وترتيب الشيخ محمد أويس الندوي .

(٦٣) أضواء البيان ٢١٥/٢ .

فحش من المعاصي وكبر، وعظم جرمه، وخطره، وعقابه، قال أبو السعود (والفحشاء الزنى لأنه مفرط في القبح) (٦٤).

إننا نجد أن القرآن الكريم يؤثر ذكر لفظ (السوء) في كثير من مواضعه، على ذكر الألفاظ النابية الشاذة كما قال تعالى:

﴿لَا يَجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ...﴾ (٦٥).

للتعبير عن المعاني المذمومة، المستقبحة عقلاً، كقوله تعالى على لسان امرأة العزيز لزوجها: ﴿... قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٦). قال الشوكاني رحمه الله: (والمراد بالسوء هنا الزنا) (٦٧) لكنها حكمة الله باختيار أعذب الألفاظ وأجملها، وأكثرها تهديباً لإفهام خلقه ما أنزله إليهم من كتاب وحكمة.

خامساً: الاعتماد على حذف ألفاظ الفحش والتفحش بعد ذكر ما يشير إليها:

لا يزال القرآن الكريم صاحب الجمال في مضمونه وأهدافه وصياغة آياته وانتقاء عباراته، لا يزال يتفنن في إخفاء كل ما يחדش الحياء، ويفسد الفطرة، ومن ذلك اعتماده وهو يتحدث عن الفحشاء، والفحش والتفحش على الحذف والإضمار والتضمين والطي والاختصار والإجمال، ونحو ذلك، يقدم ذلك كله وأمثاله على عكسه ونقيضه من ذكر، وإظهار، وتصريح، ونشر، وبسط، وتفصيل، ونحو ذلك، مكتفياً بما سبق الحديث عنه وأسلف ذكره مما يشير إليه، ومن هذا، ما جاء في قوله تعالى على لسان امرأة العزيز

(٦٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٢١/٣، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، مطبعة (بيروت)، دت، البلد (بدون).

(٦٥) النساء: ١٤٨.

(٦٦) يوسف: ٢٥.

(٦٧) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (٢١/٤)، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠).

تهديداً ليوسف ﴿... وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لُبِسُجْنٍ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾^(٦٨). وتقدير بقية الآية (ولئن لم يفعل ما أمره من الزنا أو الفاحشة) ليسجن، إلا أن القرآن حذف هنا ما قدرناه وذكرناه، كونه سبقت الإشارة إليه، والحديث عنه، وحتى لا يكرر أو يطنب دون حاجة، وتحاشياً من ذكر الألفاظ التي يكون سترها أفضل من كشفها، ومواراتها أولى من إظهارها واكتفاءً بالإشارة بدلاً من طول العبارة.

ومثل ما سبق ما جاء في دعاء يوسف لربه أن يعصمه من فتنة الفحشاء وكيد أهلها مؤثراً السجن على الفاحشة كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَالْأَتْرَفُ عَنِّي كَيْدُهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٦٩). لم يصرح القرآن بمضمون ﴿يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ ولا بمضمون ﴿كَيْدُهُنَّ﴾ لكنه مفهوم من سياق الآيات السابقة، وموضوعها الذي دارت حوله، وهو مراودتهن إياه على نفسه بالزنا كما قال أهل التفسير^(٧٠)، لقد حذف القرآن ألفاظ الفحش والتفحش وذكر ما يشير إليها من ضمائر الإشارة لما سبق ذكره كما جاء في قوله: ﴿يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾^(٧١).

وخلاصة القول: أن آيات التحرش الجنسي بيوسف عليه السلام من امرأة العزيز في سورة يوسف قد بلغت أكثر من عشر آيات، وقاربت الصفحتين تقريباً إلا أنها رغم طولها وتفصيل أحداثها وحديثها عن امرأة العزيز ونسوتها، اللائي حاولن إيقاع يوسف في الفاحشة - فاحشة الزنا - هذه الآيات لم تصرح أبداً في ثناياها بألفاظ الفحش والزنا وما يتعلق به، بل كانت كلها تأتي بألفاظ دالة

(٦٨) يوسف ٣٢ .

(٦٩) يوسف ٣٣ .

(٧٠) جامع البيان ١٣/١٤٤ للطبري .

(٧١) الدر المنثور للسيوطي ٨/١٩١ .

عليه ، أو مشيرة إليه ، بكناية وتعريض وصفة ، ونحو ذلك ، وهذا يؤكد تعطف النص القرآني أثناء حديثه عن الجنس الإنساني الغريزي عن كل ما لا يليق ذكره والتصريح به .

إن القارئ لسورة يوسف ، والسامع لها ، والمتأمل لقصته ، والمتدبر لأحداثها مع نسوة مصر مهما كرر قراءتها وسماعها وتدبرها ، يجد نفسه يتمتع بمشاهدها وتفصيلها ، ويأخذ العظة والعبرة منها ، دون أن تثار فيه غريزته ، أو تشتعل شهوته ، رغم أن بعض هذه الآيات قد شرح تفاصيل ما وقع في غرفة امرأة العزيز من نزع الثياب ، واستلقاء على الفراش ، وزينة فاتنة ، ودعوة ماجنة ، ومع هذا كله فكما أن الله تعالى قد عصم يوسف عليه السلام من التأثر بهذه الفتنة كلها ، وحفظه من الوقوع في الفاحشة ، فإنه سبحانه قد عصم كل قارئ لسورة يوسف وقصتها من التأثر السيء غير المحمود عند قراءته لأحداث الفتنة والإغراء فيها ، وتأملها ، وتخيله لمشاهدها ، كما تفعله وتتسبب فيه القصص الغرامية ، أو العبارات الجنسية ، التي يكتبها البشر في مؤلفاتهم أو يسجلونها في وسائل إعلامهم أو يرسمونها في عقولهم ، ذلك أن القرآن كلام الله الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(٧٢) .

المطلب الثاني بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في حديثه عن الاتهامات الجنسية

الباطلة

كما أن القرآن الكريم قد حافظ على الجو الإيماني العفيف، وهو يتحدث عن اتهام الزوج لزوجته بالزنا ، وقذفه لها بالفاحشة في آيات الملاعنة بينهما ، فإنه كذلك يحرص كل الحرص وهو يسرد قصص الأبرياء السابقين الذين اتهموا بطهارتهم وعفتهم ، وطعنوا في عرضهم وشرفهم ، يحرص على تسجيل ذلك وسرده وتصويبه بأسلوب بليغ ، يحقق العظة والعبرة ، ومنهج سام يربأ

(٧٢) فصلت ٤٢ .

بكلام الله أن يهبط إلى الأدنى وهو يتحدث عن القضايا الدنيوية والمسائل الدنيا ،
الذميمة الوضعية ، فالقرآن الكريم يتناولها بأسلوب عال رفيع رائع ، وهذا ما
تجلى بشكل كبير في قصة مريم عليها السلام مع ولدها عيسى ، وقصة الإفك
التي اتهمت فيها عائشة رضي الله عنها بالفاحشة ، كما يتضح من الفقرتين
التاليتين .

أولاً : بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في صياغته لقصة مريم وولادتها بعيسى
عليهما السلام .

تناول القرآن الكريم قصة مريم وعيسى عليهما السلام في أكثر من سورة
وموضع ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِذِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ
بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ
وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ، قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا
قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٧٣) .

وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ،
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنِ
كُنْتُ تَقِيًّا ، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ
وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ، قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ، فَحَمَلَتْهُ
فَاتَّيَبَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا
مَنْسِيًّا ، فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ، وَهَرَبِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ
عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا ، فَكَلِمِي وَأَسْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا

(٣) آل عمران ٤٥- ٤٧ .

فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمِ أَنْسِيًّا ، فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ، يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ
امْرَأًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا ، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ
آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَبِرَأْسِ
بُؤَالِدَتِي لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ، ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَّرُونَ ﴿٧٤﴾ .

وقال تعالى في موضع ثالث : ﴿ وَمَرْيَمُ ابْنْتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ
رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنْ الْقَانِتِينَ ﴾ ﴿٧٥﴾ .

هذه أهم الآيات التي تناولت قصة مريم وولادتها بعيسى عليهما السلام -
بدون أب ، وهذا الأمر لم يرق لقومها في زمانها ، ولم تقبله عقولهم ، فكذبوه ،
وأنكروه ، بل آذوا السيدة مريم عليها السلام باتهامها بالوقوع في الفاحشة حتى
حملت بعيسى ابن مريم ، فلنتأمل النصوص القرآنية السابقة في سرد هذه
المشاهد ، ومعالجة هذا الافتراء على مريم عليها السلام ، بأعذب العبارات المهذبة
، وألطف الكلمات الرقيقة الراقية ، ولن نخوض في موقف أهل الكتاب من هذه
القضية إنما البحث هنا يدور حول بلاغة التعبير القرآني في صياغة قصة مريم
عليها السلام وولادتها لعيسى ، فعند التأمل في الآيات السابقة نجد الآية الأولى
تخاطب فيها مريم عليها السلام ربها ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَكَدُّوْكُمْ يَمْسِسْنِي
بَشْرًا . . . ﴾ ﴿٧٤﴾ وتقول في الآية الثانية ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشْرٌ وَلَمْ أَكُ بَعْثًا ﴾ ﴿٧٥﴾

(٧٤) مريم: ١٦- ٣٤ .

(٧٥) التحريم: ١٢ .

(٧٦) آل عمران: ٤٧ .

(٧٧) مريم: ٢٠ .

فقد عبرت مريم عليها السلام عن حملها بدون نكاح رجل بلفظ ﴿وَلَمْ يُمْسَسْنِي﴾ وقد سبق شرح ما في هذا التعبير من عضة ولطافة وذوقيات رفيعة ، بدلاً من التصريح بالجماع ، بما يغني عن إعادته هنا وعندما نتأمل الآيات الأخرى المتعلقة بالموضوع ، والله عزوجل يسجل اتهامات أهل الكتاب في زمانها لها بالوقوع في الفاحشة حتى حملت ، نجد النص القرآني لا يصرح بشيء من ألفاظ الزنى أو الجماع ونحوه ، بل كما قال تعالى في معرض حديثه عن جرائم أهل الكتاب وكفرهم بآيات الله ، وغير ذلك قال : ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾^(٧٨) .

والمعنى اتهموها بالزنا وقذفوها به وهي منه براء^(٧٩) ، لكن القرآن يعرض عن ذكر لفظ الزنا أو الفاحشة إلى سواه ، فيذكر لفظ البهتان الذي يعني القول أو العمل الذي لا يتوقع ولا يوجد له جواب كما قال أهل التفسير^(٨٠) ، فهو (الخبر الكذب الذي يبهت السامع)^(٨١) .

إن القرآن يستخدم هذا اللفظ لعدة مقاصد بلاغية وأدبية ، منها الإعراض عن فحش القول ، ومنها بيان أن زعم قومها فيها كذب ، ومنها تعظيم وتهويل افتراءهم عليها ، وغير ذلك .

ثانياً : بلاغة القرآن وآدابه الرفيع في ذكر حادثة الإفك وتبرئة عائشة عليها السلام: -

تناول القرآن الكريم حادثة اتهام عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاحشة ، في عشر آيات ، في عشر آيات من سورة النور هي قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ

(٧٨) النساء/١٥٦ .

(٧٩) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٧٣ ، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، شمس الدين القرطبي (٦٧١هـ) ، تحقيق أحمد البردوني وغيره ، دار الكتب المصرية ، ط ٢ ، ١٢٨٤هـ - ١٩٦٤م - القاهرة - مصر .

(٨٠) التحرير والتنوير ٤/٣٠٤ .

(٨١) نفسه ١٨/١٤٦ .

مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ، لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، إِذْ تَلَقَوْهُ بِاللَّسِنِ كُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ، وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ، يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ ﴿٨٢﴾ .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن سبب النزول ، وما فيها من أحكام وآداب ونحو ذلك ، إنما القصد بيان أدب القرآن وسمو ألفاظه وتعبيراته عن هذه الحادثة ، فمن المعلوم أن المقصود بـ (الإفك) الوارد في الآيات هو إتهام عائشة رضي الله عنها بالوقوع في فاحشة الزنا ، والإفك هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء^(٨٣) ، أو أشنع الكذب وأفحشه^(٨٤) ، وهو مشتق من الأفك بفتح الهمزة وهو قلب الشيء^(٨٥) .

وإذا تأملنا الأسلوب القرآني في التعبير عن هذه الفاجعة بحق أم المؤمنين نجد أدباً رفيعاً وذوقاً عالياً في نصوص القرآن التي نزلت كما يلي :

١) الاستغناء بلفظ (الإفك) عما سواه من ألفاظ الفاحشة وما في معناها .

(٨٢) النور: ١١ - ٢٠ .

(٨٣) مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/٣٣٧ .

(٨٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٩٣/١٠ ، د. محمد سيد طنطاوي (شيخ الأزهر) دار النشر (بدون) .

(٨٥) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٨/١٣٦ .

٢) المجيء بضمير الإشارة (الهاء) وهو في قوله: ﴿... لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾ (٨٦).

٣) المجيء بضمير الإشارة المتصل (الهاء) مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿... وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٨٧).

٤) المجيء بضمير الإشارة المتصل (الهاء) مرة ثالثة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ (٨٨).

٥) ذكر اسم الإشارة المنفصل (هذا) في قوله سبحانه: ﴿... وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (٨٩).

٦) تكرار ذكر لفظ (إفك) كما في الآية السابقة.

٧) إثبات ضمير الإشارة المتصل في قوله: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...﴾ (٩٠).

٨) حذف موضوع الكذب في إخباره سبحانه عن الذين جاؤوا بالإفك بقوله: ﴿... فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (٩١) أي الكاذبون في اتهامهم لعائشة بالفاحشة.

٩) الاكتفاء بضمير الإشارة المتصل في قوله سبحانه: ﴿... لَمَسْكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٢).

١١) النور ١١.

١٢) النور ١١.

١٣) النور ١٢.

١٤) النور ١٢.

١٥) النور ١٣.

١٦) النور ١٣.

١٧) النور ١٤.

١٠) إثبات ضمير الإشارة المتصل في قوله سبحانه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا...﴾ (٩٣). وفي قوله: (تلقونه) و(به) و(تحسبونه).

١١) ذكر ضمير الإشارة المنفصل في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (٩٤).

١٢) إعادة ذكر ضمير الإشارة المتصل في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ...﴾ (٩٥).

١٣) تكرار لفظ (هذا) ضمير الإشارة المنفصل في قوله عزوجل: ﴿... قَلَّمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَكَلِّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٦).

١٤) التعبير عن اتهام عائشة بالفاحشة بلفظ (بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) دون التصريح بالفاحشة كما جاء في قوله سبحانه: ﴿... سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٧).

١٥) تكرار ضمير الإشارة (الهاء) في قوله سبحانه: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٨).

إننا نجد في كل الآيات السابقة أن القرآن الكريم تحدث عن الفاحشة - فاحشة الزنا - ورمي أم المؤمنين بها ، في أكثر من ستة عشر موضعاً ، ولم يصرح بذلك في أي موضع منها ، إنما كان يعتمد على اللفظ الدال على فاحشة الزنى ، والمبين كذب ذلك، وعظمته ، ووضوح زعمه ، وعقوبته ، كاستخدامه

١٣) النورة ١.

١٤) النورة ١.

١٥) النورة ١٦.

١٦) النورة ١٦.

١٧) النورة ١٦.

١٨) النورة ١٧.

للفظ (إفك) سواء بالتعريف أو التنكير، ويعتمد على تكرار ضمائر الإشارة المنفصلة (هذا) أو المتصلة (الهاء) أكثر من مرة، ليشير بذلك إلى هذه الفاحشة التي لم يصرح بها، ولا مرة واحدة، من أول الآيات إلى آخرها .
فهل بعد هذا الأدب القرآني والذوق الرفيع والبلاغة العالية أدب أعظم مما هو في كتاب الله ؟

إن القرآن الكريم لم يكتف بإخفاء لفظ الفحش والزنا في هذه الآيات، تعظيماً لمقام أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها، وتنقية لكتاب الله من الألفاظ التي يمكن الاستغناء عنها فأفضل منها مما يشير إليها، بل أخفى القرآن أسماء الذين جاؤوا بالإفك ليستر القول والقائل والمقول فيه وهي أمنا عائشة رضي الله عنها .

ويكشف الحكم والآداب التي تهم المسلمين، وتهديهم سواء الصراط .
فكما أن الله تعالى قد طهر أمنا عائشة من كل دنس وسوء، ونقاها من كل فحش وقبح، فإنه سبحانه قد صفى كتابه وكلامه من كل ما يطعن في عرضها وشرفها ومقامها العالي .

المطلب الثالث : بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في حديثه عن ممارسة الفواحش :

تحدث القرآن الكريم كثيراً عن الفواحش وكبائر المعاصي، ومنها فاحشة الزنى، وفاحشة اللواط، بأسلوب فريد قيم ويتضح هذا من الفقرتين التاليتين:

أولاً: أدب القرآن الرفيع في حديثه عن فاحشة الزنا : -

تحدثت آيات القرآن عن فاحشة الزنا كما يلي : -

١ - إما أن تصرح بلفظ (الزنى) وبعض مشتقاته كاسم الفاعل (الزاني) و(الزانية) أو الفعل المضارع (يزنون - يزنين) وقد تبين من خلال حصر واستقراء آيات الزنى أن القرآن الكريم لم يزد على الألفاظ المذكورة أعلاه - وإن كرر، بعضها .

- وهو كذلك قد أعرض صفحاً عن ذكرها بصيغة المخاطب (تزنون - تزنين).
- ولم يُصغ منها أسماء جمع وجموع (زواني - زناة) إنما كان يكتفي بالاسم المفرد منها .
- ولم يصرح بممارسة فعل الزنى إلا في موضعين اثنين فقط بصيغة الفعل المضارع ، وبصيغة الغائب كقوله تعالى في شأن الذكور المسلمين ﴿... وَلَا يَتْلُونَ الْفُسَّ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ...﴾^(٩٩).
- وقوله سبحانه في شأن الإناث المسلمات : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ...﴾^(١٠٠).
- ٢ - وإما أن يذكر هذه الجريمة بأوصاف تدل على قبحها وجرمها وفداحتها وحكمها الشرعي ، كما جاء في ذكره للفاحشة والفواحش في كثير من المواضع كقوله سبحانه : ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ...﴾^(١٠١) وقوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ...﴾^(١٠٢).
- ٣ - أو أن يعبر عن الزنا بلفظ آخر يدل عليه :
- كما جاء في قوله سبحانه : ﴿... وَلَا تُكْرَهُوا قِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا...﴾^(١٠٣) والمقصود بالبيغاء هنا هو الزنا كما قال المفسرون^(١٠٤).

(٩٩) الفرقان ٦٨ .

(١٠٠) الممتحنة ١٢ .

(١٠١) النساء ١٥ .

(١٠٢) آل عمران ١٣٥ .

(١٠٣) النور ٣٣ .

٤ - أو أن يحذر من فاحشة الزنى بلفظ (لاتقربوا) كقوله سبحانه : ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(١٠٥) وقبل أن نبين بلاغة القرآن وأدبه الرفيع في حديثه عن الزنا نذكر .

ثانياً: أدب القرآن الرفيع في حديثه عن فاحشة اللواط :

تناول القرآن الكريم موضوع اللواط وما يتعلق به في بعض آياته كما يلي:

١ - إما أن يأتي بلفظ (لوط) دون أي اشتقاق له ، بل يذكره بالإضافة إلى غيره أو مفرداً كقوله تعالى : ﴿... لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾^(١٠٦). وقوله : ﴿فَأَمِّنْ لَهُ لُوطٌ...﴾^(١٠٧).

وكما جاء في كثير من الآيات ، فلم يأت بلفظ (اللواط) بهذه الصيغة مطلقاً أي المصدر .

- ولم يصغ منه أفعال الممارسة الجنسية المحرمة (يلوط) أو (لاط) ونحو ذلك أبداً .
- ولم يشتق منه أسماء الفاعل لا بصيغة الإفراد (لوطي - لاطئ) ولا بصيغة الجمع (لوطية - لوطيون) .
- ولم يأت في القرآن بأسلوب المخاطب أو الغائب ، ولا بالإفراد أو التثنية أو الجمع .

^(١٠٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥٤/٦ ، أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت١٧٧هـ) ، تحقيق سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

^(١٠٥) الإسراء ٣٢ .

^(١٠٦) هود ٧٠ .

^(١٠٧) العنكبوت ٢٦ .

٢ - وإما أن يذكر هذه الجريمة بأوصاف تدل على حرمتها وشناعتها - كما فعل في فاحشة الزنى - كقوله تعالى على لسان لوط منكراً على قومه ومحذراً لهم ﴿... أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^(١٠٨).
وقوله داعياً قومه إلى الزواج ببنت زمانه بدلاً من ممارسة اللواط : ﴿قَالَ هُوَ لَأَبْنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾^(١٠٩). قال المفسرون : (أمرهم لوط أن يتزوجوا النساء ، وأراد أن يقي أضيافه ببنته)^(١١٠) .

وبعد كل ما سبق من نصوص القرآن المتحدثة عن فاحشتي الزنا واللواط نجد أن القرآن الكريم تناول ذلك في غاية الأدب والألفاظ المهذبة والأسلوب الرائع كما يلي: -

١ - اقتصر في حديثه عن الزنا واللواط على أقل الألفاظ ، واختصرها كثيراً بأعداد لا تقارن بحديثه عن الكفر والشرك وغير ذلك من كبائر المعاصي ، بل الاختصار واضح جداً وخاصة في حديثه عن فاحشة اللواط ، فلم يذكر مشتقات لفظ لوط) مطلقاً ، ولم يصرح بممارسة هذا الفعل ولا بأسماء الفاعل والمفعول ، ولم يأت بمصدره ، ولم يذكر مثناه ولا جمعه ، ولا حاضره ولا غائبه. وكان المناسب لهذا المقام هو الاختصار والاقتصار على الضروري فقط لتبيين الأحكام .

٢ - اعتمد القرآن كثيراً في تعبيره عن هذه الممارسات بوصفها بأوصاف مشيرة إليها، دالة على قبحها وجرمها وحرمتها وكبرها ، دون التصريح بها ، إنما بتسميتها بالفاحشة أو الفواحش. أو (البغاء) المأخوذ من البغي والتجاوز بغير الحق .

(١٠٨) الأعراف ٨٠.

(١٠٩) الحجر ٧١.

(١١٠) جامع البيان للطبري ٩١/١٤ .

٣ - استخدم القرآن في تحذيره من هاتين الفاحشتين ، وتحريمهما ألفاظاً مهذبته ، لطيفة على الأسماع ، محافظة على الحياء مميزة للمؤمنين عن المجرمين في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَ . . . ﴾^(١١١) . وقوله في إنكار لوط على قومه ممارسة فاحشة اللواط ﴿ . . . إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَاحِشَةَ . . . ﴾^(١١٢) . ودعوته لهم إلى التمتع بالحلال عن الحرام والاكتفاء بما شرع الله قائلاً : ﴿ . . . هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ . . . ﴾^(١١٣) . وقال : ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾^(١١٤) .

فالملاحظ أن قوله : (تأتون) وقوله : (فاعلين) وقوله سبحانه قبل ذلك (لا تقربوا) كلها ألفاظ لا توحى أبداً بفحش القول أو نكارته ، وتدل على المقصود تحريمه والتحذير منه دون الحاجة للتصريح بالأفعال والممارسات الجنسية المحرمة . وبهذا يكون الباحث قد انتهى من شرح بلاغة القرآن وآدابه الرفيعة في حديثه عن الخصوصيات الزوجية والممارسات الجنسية حيث تبين لنا أن كلام الله قد بلغ الدرجات العلى في عرض المحاسن وغيرها ، وشرح الحقائق وخفاياها .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على النبي الأمين .

(١١١) الإسراء ٣٢ .

(١١٢) العنكبوت ٢٨ .

(١١٣) هود ٧٨ .

(١١٤) الحجر ٧١ .